

أزمة المنهج بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية

Curriculum crisis between natural sciences and humanities

تبانى خديجة

جامعة وهران 2، محمد بن احمد / الجزائر، tebanikhadidja43@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/06/17، تاريخ القبول: 2023/07/24، تاريخ النشر: 2024/02/20

Abstract

الملخص

The European reconnaissance was known for the emergence of scientific materialist philosophies based in their interpretation of the universe and things on the empirical scientific approach; in line with the requirements of Scientifics and technological development. Due to the specificity of its topics; it is not possible for it to apply this approach due to the existence of epistemology obstacles; including phenomena; but on the other hand there is a call for the need to follow the example of the science and to work hard to ensure its position.

عُرف عصر النهضة الأوروبية بظهور فلسفات مادية علمية تركز في تفسيرها للكون والأشياء على المنهج العلمي التجريبي وذلك تماشيا مع متطلبات التطور العلمي والتكنولوجي، فمنذ أن أعلنت الوضعية المنطقية تقويضها للميتافيزيقا أصبح الحديث عن الاستقراء ضرورة ملحة، وهو وحده الكفيل بضمان علمية العلوم لكن في المقابل هنالك ميادين ونظرا لخصوصية موضوعاتها يتعذر عليها تطبيق هذا المنهج لوجود عوائق إبستمولوجية منها الظواهر الانسانية لكن في المقابل هنالك دعوة لضرورة السير على منوال بقية العلوم وأن تعمل جاهدة لضمان مكانتها.

Keywords: Method; Humanities; Natural Sciences; Interpretation; Understanding.

الكلمات المفتاحية: المنهج، العلوم الانسانية، العلوم الطبيعية، التفسير، الفهم.

1- مقدمة:

لا ينفصل تاريخ الفلسفة عن المعرفة ذاتها فقد كانت كل التخصصات والمجالات المعرفية الأخرى جزء لا يتجزأ من ميدانها وظل كل من العلم والفلسفة مفهومين متداخلين لروح من الزمن لكن بعد استقلال الحقول العلمية عنها وانفصال العلوم عن الفلسفة كان هنالك منعرجا حاسما في تاريخ الفكر البشري في الفترة الحديثة، ذلك أن المواضيع المتناولة لم تعد لها علاقة بالميتافيزيقا، بل بالواقع المحسوس المادي الذي يهتم بصناعة الأشياء فكانت أولى العلوم استقلالا علم الفلك على يد كبلر وآخرها علم النفس بعد أن أسس فوندت أول مخبر تجريبي، وبهذا امتازت العلوم بالجزئية والتخصص كل علم له موضوع خاص للدراسة مع اتفاق حول المنهج المتبع ألا وهو منهج الاستقراء، فعُدَّ المنهج الأوحد ولا بديل له فهو النقطة المفصلية للتمييز بين العلم واللا علم، ورغم كل ما تبعه من دحض وتقنيذ من قبل العلماء فسماء شارلي برود بفضيحة الفلسفة، وسماء وايتهد بيأس الفلسفة، إضافة إلى كارل بوبر الذي رفض مبدأ التحقق للوضعيين المناطق معتمدا على مبدأ التنفيذ والتكذيب. لكن رغم ذلك بقي المنهج الوحيد المتبع.

وتجدر الإشارة إلى أن هنالك من الظواهر ما له علاقة بالواقع الحسي كالعلوم الطبيعية القابلة للدراسة الإمبريقية وظواهر غير مادية لها علاقة بالواقع الانساني وهي الظواهر الانسانية (الحادثة التاريخية/ الظاهرة الاجتماعية/ الحادثة النفسية) وهي الأخرى انفصلت عن الفلسفة مما جعل الأمر أكثر تعقيدا على اعتبار أنها علوم معنوية تدرس سلوك الانسان المتميز بحرية الإرادة في التصرف فيتعذر التعامل معه مقارنة بعلوم المادة الجامدة، وهنا واجهت الدارسين عوائق ابستمولوجية مما استدعت الضرورة إلى النظر في مفهوم التجربة.

فإلى أي مدى يمكن اعتبار المنهج الاستقرائي منهجا علميا؟، هل كل الظواهر قابلة للدراسة التجريبية العلمية؟ ألم يحن الوقت بعد لتغيير معنى التجربة وتوسيع نطاقها ومعناها وتكييفها بحسب الموضوع؟ هل يمكن للظاهرة الانسانية أن تخضع للتجربة؟.

2- الاستقراء وعلاقته بالعلم:

كان الاستقراء هو السبيل الوحيد والمنهج المتبع لبناء معرفة علمية والذي ينتقل فيه العالم من قضايا جزئية إلى قضايا كلية لم تحدث بعد، أي يتم الانطلاق من تلك القضايا الجزئية وبواسطة الاستدلال الاستقرائي نصل إلى قضايا كلية، فقد اهتم اليونان بالجانب النظري أما الحضارة الغربية فاهتمت بجانبه العملي. ويعد فرنسيس بيكون Francis Bacon (1561-1626) واضع أسس الاستقراء العلمي في كتابه (الأورغانون الجديد) بعد أن انتقد الاستنباط وقد سبقه إلى ذلك القسيس روجر بيكون في القرن 12م.

هذا وقد بلغت الفيزياء الحديثة أرقى درجات التطور بعد أن كان التقدم الحقيقي لهذه العلوم خصوصاً منها الفيزياء مع علماء من أمثال غاليليو (1564-1642) ونيوتن (1642-1727) خصوصاً بعد أن أصبحت لغة الرياضيات لغة كل العلوم، دون أن ننسى تلك الاسهامات التي قدمها العرب أمثال جابر بن حيان (721-810م)، وابن الهيثم (965-1039م) وغيرهم. إلا أن المتفق عليه بين مؤرخي العلم هو أن: "العلم الطبيعي الحديث قد سار نحو التقدم بمجرد أن وضع كوبرنيك (1473-1543) فرضية مركزية الشمس، بعدها شهدت جامعة فيينا ازدهاراً طيباً للمذهب التجريبي نتيجة تعاليم أرنست ماخ واستمر هذا التطور مع بولتزمان Boltzmann وفي عام 1922م تصدّر موريس شليك (1882-1963) كرسي الأستاذية للعلوم الاستقرائية، واجتمع حوله كل من له اهتمام بالمنهج أمثال فريدريك ايزمان ورودولف كارناب (1891-1970) وغيرهم فقد أراد هؤلاء تأسيس فلسفة علمية خالية من الميتافيزيقا فقاموا بتبني مبدأ التحقق الذي يعني الرجوع إلى الواقع التجريبي من أجل التحقق من صدق القضايا (محمد ثابت الفندي، 1994، ص265) وقد قدّم شليك أول صياغة لمبدأ التحقق في عبارته المشهورة: "إنه حتى نفهم قضية ما ينبغي علينا أن نكون قادرين على أن نشير بدقة للحالات الفردية التي تجعل القضية صادقة وكذلك الحالات التي تجعلها كاذبة. وهذه الحالات هي وقائع الخبرة، فالخبرة هي التي تقرر صدق القضية أو كذبها" (الفندي، 1994، ص201).

وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على أهمية المنهج التجريبي في ممارسة عملية التحقق وقد وضع ليكون لهذا المنهج خطوات تتمثل في الملاحظة وهي على نوعين ملاحظة عادية بسيطة غرضها

الفضول المؤقت من شروطها سلامة الحواس، وملاحظة علمية مركبة ومجهزة يتم فيها مشاهدة الظاهرة في الطبيعة من دون تغيير تليها خطوة الفرضية وهو ذاك الحل أو الاقتراح المؤقت الذي يضعه الباحث ومن شروطها أن تكون واقعية قابلة للتجريب، بعدها خطوة التجربة وهي اصطناع الظاهرة في المخبر بواسطة أدوات ووسائل علمية من شروطها أنها قابلة للتكرار يتم من خلالها التأكد من صدق الفرضيات، وأخيرا القانون وهو البحث عن العلاقات بين الظواهر يصاغ صياغة رياضية رمزية، من شروطه التنبؤ والتعميم "يبدأ بالملاحظة المنظمة للظواهر الطبيعية التي يراد بحثها (...) أما الفرضية فهي تفسير علمي يضعه العالم ثم يحاول التحقق منه تجريبيا (...) أما مرحلة التجريب فتوضع الظواهر في ظروف يمكن التحكم فيها، مع تنويعها إذا أمكن ذلك ومن مجموعة من التجارب يتكون لدينا عدد من القوانين الجزئية التي تبدوا مستقلة عن بعضها البعض وهي تمهد لنا الطريق للوصول إلى قانون عام" (ابراهيم مصطفى ابراهيم، 1999، ص ص 180.180)

ولو أن الفيزياء المعاصرة تخلت عن مبدأ الحتمية الذي يفيد أن توفر نفس الشروط يؤدي إلى توفر نفس النتائج وهو ما يصلح للظواهر الماكرو فيزيائية (العينية المجردة)، وهنالك ظواهر ميكرو فيزيائية (متناهية في الصغر) يتعذر فيها تطبيق هذا المبدأ وهذا ما أدرجه ماكس بلانك (1858-1947) في الفيزياء الكوانتية، وعلائق الارتباب (اللايقين) لألبرت أينشتاين (1879-1955) مما استدعى ضرورة الاعتماد على المنهج الفرضي الاستنباطي، "حتى الفيزياء البحتة دونًا عن الفيزياء التجريبية أو العملية -التي هي نسق فرضي استنباطي- فتبدو من الناحية الصورية أقرب إلى الرياضيات، أو لعلها من ناحية المناهج الإجرائية هكذا فعلا، فإنها -أي الفيزياء البحتة- ومهما رُوِيَ فيها الاتساق الرياضي والقوة الاستنباطية للفروض" (يمنى طريف الخولي، 2012، ص ص 24-25).

3- مفهوم العلوم الانسانية والفرق بينها وبين العلوم الطبيعية:

اطلق مصطلح العلوم الانسانية على العلوم التي ارتبط موضوعها بواقع الانسان، أي التي تتخذ من أحوال الناس النفسية والسلوكية وتجمعاتهم البشرية ومؤسساتهم الاجتماعية (أحمد عبد

الجبار فاضل، د. ت، ص587). وهي علوم معنوية تتخذ من سلوكيات الانسان موضوعا لها من خلال فعالياته التاريخية الاجتماعية، والنفسية.

إن أول ظهور للعلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر كان محاولة للتخلص من شمولية الفلسفة لكل تلك العلوم، ولذلك اختصت العلوم الإنسانية بتناول دراسة الذات الإنسانية وأنشطتها في صورها المختلفة ذلك الانسان الذي يمتلك لغة ويتميز بالوعي ، يقول فوكو : "إن العلوم الانسانية إنما تتوجه إلى الانسان من حيث هو كائن حي، ينطق وينتج، وبما أنه كائن حي فهو ينمو ويتمتع بوظائف ويشعر بحاجات (...) يمكن إذن تحديد مكانة العلوم الانسانية في جوار ، وعلى الحدود المباشرة من تلك العلوم التي تبحث في الحياة والعمل واللغة" (فوكو ، 1990 ، ص288)

وبما أن العلوم الانسانية تختلف عن العلوم الطبيعية من حيث أنها تجعل من الانسان موضوعا لها فستكون دارسا ومدروسا في آن واحد، والعلوم الفيزيائية الكيميائية في الغالب وسيلة للتعقب وكذلك وسيلة لإنتاج الطبيعة والسيطرة عليها هذا إذا ما قارناها بالعلوم الانسانية التي لا يرتجى منها منفعة عملية فتلك الحوادث التاريخية مثلا من حروب وبطولات والتي كانت وقائعها في الماضي ما الذي ستقيدنا به في الحاضر والمستقبل؟ ربما الغاية من الدراسات الانسانية لا تتعدى أن تكون معرفة للماضي وتكوين شخصية للأفراد وفق النحن، لأن الأنا ستتشكل على خلفية الآخرين وتلك العلاقات والتجمعات البشرية التي لا يكون لها تأثير على جماعة إنسانية في الحاضر أم المستقبل، عكس الماضي بالنسبة للعلوم الحقة كما يطلق عليها سنجد أن هذه الأخيرة تعتبره وقائع تجريبية سيتم اللجوء إليها قياسا في المستقبل وهو ما يعرف بالتنبؤ هنا يقول (لوسيان غولدمان Goldman 1970-1913) عن الفرق بين العلمين: "ليست العلوم التاريخية والإنسانية كالعلوم الفيزيائية والكيميائية، دراسة لوقائع خارجية عن الناس، وقائع عالم يتوجه إليه فعلهم، إنها بالعكس من ذلك، دراسة لهذا الفعل نفسه ولبنيته وللتطلعات التي تُحييه وللتحولات التي يخضع لها، ولكنه جزئي للنشاط الانساني، فليس من حق الدراسة التاريخية أن تقتصر على الظواهر الواعية" (لوسيان غولدمان، 1996 ، ص 59)، وهذا نظرا لما تتميز به كل ظاهرة عن الأخرى من خصائص ومميزات.

أما كلود ليفي ستراوس (1908-2009) فيرى أن العلوم الإنسانية تأخرت كثيراً عن العلوم التجريبية ولكن في القرن الماضي _ يقصد القرن التاسع عشر _ فإن الوضع تغير كثيراً نتيجة تطور العلوم التجريبية في مناهجها وهذا الوضع الجديد استغلته العلوم الإنسانية لتجعل من ذاتها منفعة ومصلحة كبرى تحاول بذلك حل مشاكل الإنسان. (أحمد عبد الجبار فاضل، ص588)

إن موقف ميشال فوكو (1926-1984) من العلوم الإنسانية القائم على نفي إمكانية قيامها كعلوم مستقلة، راجع إلى كونه يمثل أحد أهم المفكرين البنيويين ما بعد-حداثيين الرافضين لفكرة الذات أو الإنسان، وهذا ما تُبينه لنا الأنطولوجيا التاريخية عنده القائمة على أنه لكي نتعرف على الخصائص المعرفية لمرحلة زمنية معينة يجب علينا العودة إلى الأرشيف أو الوثائق التي تتحدث عن تلك المرحلة دون نسبتها إلى مؤلفيها، لأن ما يعبر عن الحقيقة حسب رأيه هو الخطاب لا الذات. (محمد بن سباع، 2020، ص 556)، أي أن العلوم الإنسانية كانت منطوية تحت الفلسفة، ومع بداية القرن الثامن عشر بدأت هذه العلوم بالاستقلال لأنها أرادت أن تجعل من الإنسان موضوعاً قابلاً للدراسة، لذا يؤسس ميشال فوكو تصوره لإشكالية العلمية في العلوم الإنسانية من خلال موضعها فقد تواجهها عدة صعوبات ابستمولوجية قياساً بالعلوم الطبيعية، هذه الأخيرة التي عرفت بقابليتها للتجريب، ونجد في المقابل تعذر دراسة الظواهر الإنسانية دراسة موضوعية لما لها من خصائص تميزها عن بقية الظواهر الأخرى وتتميز الظاهرة الإنسانية بجملة من الخصائص أبرزها:

* أن الحادثة التاريخية حادثة إنسانية محدّدة بزمان ومكان ولا يمكن تكرارها وإن تكررت فبمعطيات جديدة.

* الدارس في الحادثة التاريخية لا يمكن أن يتأكد من صحة افتراضاته عن طريق التجربة العلمية، وبالتالي استحالة الوصول إلى قوانين علمية.

* هذا وتواجهنا جملة من العقبات أثناء دراسة الحادثة النفسية باعتبارها حوادث وحالات نفسية تُعنى بالكشف عن السلوكات النفسية لكنها موضوع غير ثابت ولا يعرف مكان محدّد كما هو الحال في ظواهر الطبيعة. ولا تبقى على حال واحدة في زمنين متوالين.

* الظاهرة الانسانية مركبة وشديدة التعقيد والتداخل.

* ظواهر إرادية واعية لا تتكرر .

* ذات طبيعية كيفية وصفية، وهو ما يحول دون صياغتها صياغة رمزية رياضية (لغة الكم).

* الظاهرة الانسانية تاريخية كانت أم اجتماعية أم نفسية تبقى تحت سيطرة الأحكام الذاتية (الانتماءات الهوية، الشخصية...الخ) وبالتالي فتحري الموضوعية فيها أمر صعب عكس الظواهر الطبيعية.

* الظاهرة الانسانية معنوية ترتبط بواقع الانسان من جهة وبدواخله النفسية من جهة أخرى لذا يتعذر ملاحظتها ملاحظة علمية ويتعذر كذلك تجربتها عكس الظاهرة الطبيعية فيكون مجال دراستها المحسوسات، والملاحظة والتجربة خطوتين أساسيتين في البحث العلمي وفي غيابهما يتعذر صياغة القانون هذا الأخير القائم على التنبؤ والتعميم، أضف إلى ذلك تعذر تطبيق مبدأ الحتمية والذي يفيد أنّ توفر نفس الشروط يؤدي إلى توفر نفس النتائج وهو أمر غير ممكن في الظواهر الانسانية وهنا يرى المذهب التاريخاني أن إمكان التعميم ونجاحه في العلوم الطبيعية راجعان إلى إطراد الحوادث الطبيعية بوجه عام (كارل بوبر، 1959، ص12)، بمعنى أن الظواهر الطبيعية تمتاز بالانتظام ذلك أنّ كل حادثة تتكرر كل يوم دون تغيير كتعاقب الليل والنهار، الفصول الأربع...الخ، وهذا غير مقبول في الظواهر الانسانية لأن الظروف والأسباب تتغير بتغير الحقبة التاريخية، وهو ما ينطبق أيضا على الظاهرة الاجتماعية فقد نجد نفس الأسباب التي تستوجب حالة الطلاق في أسرتين مختلفتين فيقع في الأولى ولا ينسحب على الثانية نظرا لاتصاف الانسان بحرية الارادة في التصرف.

* عدم الدقة في التنبؤ هذا الأخير له أهمية كبيرة وهو أحد مهام العلم ولكنه غير متاح في الظاهرة الانسانية لذا كان لزاما اعادة النظر في المنهج الذي تم الاجماع على أهميته، وتطويره بحسب الظاهرة التي يكون فيها الانسان موضوعها الأساس.

4/- إشكالية المنهج وطبيعة الظاهرة الانسانية:

على اعتبار أن العلوم الانسانية آخر العلوم انفصالا عن الفلسفة في القرن 19م فقد كان هذا الموضوع عرضة للدراسة والتحليل ابستمولوجيا، ومن أكثر المشكلات الكلاسيكية والمعاصرة التي

تواجهنا مشكلة علميتها فاذا كان التحقق الامبريقي شرط في العلوم الفيزيائية فإن الأمر يختلف بالنسبة لمناهج العلوم الانسانية وهذا ما نبّه له ديكرت، لأنه ستعترضنا العديد من التساؤلات هل يمكن التنبؤ بحدوث الظاهرة الانسانية؟، هل مبدأ الحتمية مطبق عليها؟ هل يمكن تحري الدقة والموضوعية فيها؟ وهنا لا نتحدث عن الخطوات الاجرائية بقدر ما يهمننا ممارسته ممارسة ميدانية، علاوة على عدم تخلص الظواهر الانسانية من التأمل الميتافيزيقي "فالدراسات التي تتناول المجتمع لم تبلغ مستوى العلوم الوضعية فذلك لأن الأبحاث من هذا النوع كانت دوما سجيئة التفكير الميتافيزيقي" (محمد عابد الجابري، د.ت، ص 25)

ونتيجة لهذه الاشكالات يرى ماكس فيبر (1864-1920) Max Weber أن كل علم إنساني يعمل حاليا بواسطة التفسير، وقوام هذا التفسير عنده يكمن في الطريقة المخصصة لفهمنا معنى نشاط أو ظاهرة ما ومدلول مختلف العناصر بالنسبة لبعضها البعض (إبراهيم أبراش، 2009، ص 33)

انطلاقا من هذا ظهر اتجاهين الأول ممثلا في النزعة الوضعية بزعامة مؤسس علم الاجتماع الفرنسي أوغست كونت وإميل دوركايم حيث حاولا تطبيق المنهج العلمي على الظواهر الانسانية والاجتماعية وذلك بالاعتماد على منهج التفسير والتنبؤ. والثاني اعترض على امكانية تطبيق منهج التفسير على الظاهرة الانسانية، واقترح منهاجا آخر يناسب خصوصيتها ألا وهو منهج الفهم والتأويل. وسنحاول عرض رأي النزعتين على حدا:

4-1- النزعة الوضعية:

يرى أنصار النزعة الوضعية أنه بالإمكان دراسة الظاهرة الإنسانية دراسة علمية مثلما تدرس الظاهرة الفيزيائية حيث يمكن أن نُجري عليها التجارب مثلما يمكننا أن نتنبأ بحدوثها في المستقبل وهو الموقف الذي يمثله بعض العلماء من أمثال أوغست كونت (1798-1957) Comte Auguste وإميل دوركايم (1858-1917) Émile Durkheim وغيرهما. يقول دوركايم: "لم يهتم علماء الاجتماع اهتماما كبيرا حتى يومنا هذا بتحديد وتعريف الطريقة التي يستخدمونها في تعريف الظواهر الاجتماعية وهكذا نجد أن مشكلة الطريقة لا تشغل حيزا في كل ما أنتجه سينسر وذلك لأنه لم يكرس كتابه المسمى (المدخل إلى علم الاجتماع) -ذلك الكتاب الذي ربما خدعنا

عنوانه -لبيان الطرق التي ينبغي استخدامها في علم الاجتماع، ولكنه قصر على بيان الصعوبات التي تعترض نشأة هذا العلم، والأسباب التي تُيسر له الخروج إلى حيز الوجود"(إميل دوركايم، 1950، ص 48)، فسبنسر (1820-1903) قد جعل من قانون التطور مبدأ لتفسير مختلف العلوم بما فيها الانسانية. وعليه فالوضعيين أرادوا دراسة الظاهرة الاجتماعية دراسة علمية يمكن صياغة القوانين فيها بنفس كيفية دراسة الظاهرة الفيزيائية وذلك على أنها أشياء أو ما يطلق عليه بالفيزياء الاجتماعية وذلك من خلال تحديد خصائصها والتي تتمثل في:

* أنها توجد خارج شعور الأفراد، أي أنهم مقيدون بعبادات وتقاليد.

* قوة أمره قاهرة، مما يجعل الظاهرة الاجتماعية تمتاز بالإجبار والالزام، يقول دوركايم في كتابه (قواعد المنهج في علم الاجتماع): "أنها توجد خارج شعور الأفراد (...). بل أنها تمتاز بقوة أمره قاهرة" (دوركايم، 1950، ص 32)

* تمتاز بأنها جماعية (الضمير الجمعي)، أي عامة ومشتركة بين جميع أفراد المجتمع الواحد وتتسبب لهم جميعاً

* الظاهرة الاجتماعية لا تعمل منفردة فصلاح المجتمع مثلاً من صلاح الأسرة.

* تمتاز بأنها حادثة تاريخية إذ تعبر عن لحظة من لحظات التاريخ.

وهكذا نتمكن من دراسة الظاهرة دراسة علمية وما يثبت ذلك ما تشهده اليوم الظاهرة الاجتماعية من تطور كالا اعتماد على منهج الإحصاء من حسابات ورسومات بيانية، وأخذ العينات من المجتمعات أضف إلى ذلك قانون الانتحار لدوركايم والذي يكون بسبب الظروف والعوامل الاجتماعية وكذا الحالات السيكلوجية "هناك نوعان من الأسباب اللا اجتماعية التي يمكن أن نعزو لهما مبدئياً تأثيراً على معدل الانتحارات، هما الأوضاع العضوية -السيكلوجية، وطبيعة الوسط الفيزيائي - قد يحدث أنه في داخل البنية الفردية، أو على الأقل، في داخل بنية طائفة كبيرة من الأفراد ميل متفاوت الحدّة بحسب البلدان يقود الانسان مباشرة إلى الانتحار. من جهة أخرى، قد يكون للمناخ ودرجة الحرارة...

إلخ" (دوركايم، 2011، ص 25)

وتبين لدوركايم أن الخطأ الذي وقع فيه علماء الاجتماع السابقين، هو عدم اهتمامهم بإرساء قواعد وأسس منهجية علمية سليمة، في دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية، وحتى لو كانت هناك

محاولات سابقة إلا أنها لم ترق إلى المستوى العلمي، ولم تتفصل عن الطرح الفلسفي الميتافيزيقي، ولأجل تطوير العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية فقد اتجه العلماء إلى الاهتمام أكثر بالجوانب المنهجية، والحق أن أولى المحاولات ارتبطت بالحديث عن نقل المنهج التجريبي من الدراسات الفيزيائية إلى الدراسات الاجتماعية والإنسانية (محمد بن سباع، 2020، ص 558)

4-1-1- تعقيب:

لابد من التنبيه إلى أن مماثلة الظاهرة الاجتماعية للظاهرة الطبيعية فيه نوع من الغلو، نظرا لخصوصيتهما، لأن الفرق بينهما جلي -سبق وأن عرجنا عليه- ففي مناقشة للتيار السوسيولوجي الأول بين غولدمان خطأ الطرح الدوركامي الذي يعتقد أن علم الاجتماع يجب أن يدرس الوقائع من الخارج باعتبارها أشياء (لوسيان غولدمان، 1996، ص5) مركزا على أنّ موضوع الدراسة الإنسانية القائم على الوعي وأي محاولة ستكون نتائجها مضللة لأن طغيان الذاتية على الدارس أمر لا يمكن التوصل منه.

وبخصوص الحادثة النفسية فقد عدّ جان بياجييه (1896-1980) تطور العلوم الإنسانية جاء نتيجة حتمية انفصالها عن الفلسفة وبذلك حاولت حل مجموعة من الإشكاليات بمناهج تصدر من طبيعة موضوعاتها وخصوصيات ظواهرها وإن كان علم الاجتماع قد استعار منهج العلوم الطبيعية عن طريق تشيئها فإنّ العلوم النفسية وعلى اعتبار أنها آخر العلوم انفصالا عن الفلسفة فقد ظهرت فيها عدّة مناهج ومدارس عملت على دراسة الحياة النفسية واعتبرت أنّ الموضوعية ليست حكرا على العلوم التجريبية وتجسدت المبادرة الأولى مع المدرسة السلوكية مع عالم النفس الأمريكي واطسن(1878-1958) الذي استفاد من تجربة فيزيولوجيا الدماغ للعالم الروسي بافلوف (1849- 1936) ويتم فيه دراسة السلوك باعتباره استجابة أو رد فعل على المثيرات أو المنبهات وبالتالي يتم التنبؤ بالسلوك وضبطه، اضافة الى مدارس أخرى أبرزها مدرسة التحليل النفسي مع النمساوي سيغموند فرويد (1856-1939) وقبله شاركو، برنهايم وبروير بعد معالجة مريضة الهستيريا بطريقة التنويم المغناطيسي لتسقط هذه الطريقة فيما بعد وتعوض بالتحليل النفسي.

وهذا ما قاله المنطقي الميثودولوجي المدقق بريثويت: "إن التقدم الحديث في الفيزياء قد يعطي شحنة قوية لعلماء النفس كيما يضعوا تأملات جريئة؛ لأن النظريات الفيزيائية السائدة تدور حول

أشياء لا يمكن تعريفها في حدود الخبرة (...). لذلك أشعر بأن علماء النفس يجب أن تتاح أمامهم حرية كبيرة للعمل، فيما يتعلق بالكيانات التي يستعملونها وأحسب أن مجالهم قد تعرقل كثيرا في الماضي بمطالب فلاسفة وآخرين (يقصد الوضعيين والسلوكيين)"(يمنى طريف الخولي 2012، ص121).

وبخصوص الحادثة التاريخية فهي الأخرى تمكنت من تجاوز العوائق عن طريق وضع الشروط اللازمة لتحري الموضوعية المتمثلة في الأساس في تحري صدق الخبر وكذبه عن طريق الثقة في الناقلين وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والترجيح، لأن السامع عندما يكون عارفا بطبيعة الأحداث والوقائع تمكّن من معاينة الخبر والتأكد من صدقه أو كذبه، وهكذا يستطيع المؤرخ من حيابة الوقائع بطريقة موضوعية بعيدة عن ذاتيته.

4-2- النزعة الثانية:

في القرن 19م أجمع النظار على أن العلوم الانسانية علوم فهم وتأويل، بينما التفسير والتنبؤ هو سبيل تنشده العلوم الطبيعية، ومن بين هؤلاء نجد فيلهلم دلتاي W. Dilthey (1833-1911) الذي يرى أن الهيرمينوطيقا منهج عام وعلم أساس تُبنى عليه كل العلوم الإنسانية لذا سعى أن ينظّم علم الهيرمينوطيقا كمنهج جامع للفهم والتأويل في هذه العلوم (صفدر إلهي راد، 2019، ص ص 18-19) هنا أعتبر الفهم كمنهج أصيل في الدراسات الإنسانية، بمعنى جعل منه الأساس المنهجي للعلوم الإنسانية والروحية ومبحثا خاصا بها، وقد حاول دلتاي أن يبدأ من نقد العقل التاريخي وأن يسير على نهج كانط الذي حاول فهم العلوم الطبيعية من خلال كتابه (نقد العقل الخالص) ووصل إلى أنّ جميع المباحث التي تنصب على فهم أفعال الإنسان يتم تأويلها وفهمها "وهي عملية تختلف جوهريًا عن الفهم العلمي التكميمي للعالم الطبيعي، ذلك أن ما نقوم به في هذه العملية من الفهم التاريخي هو معرفة شخصية بما يعنيه كائن إنساني آخر، يكمن الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الثقافية، في رأي دلتاي تعريفات حديثة للهيرمينوطيقا في موضوع الدراسة من جهة وفي طريقة الدراسة أو منهجها من جهة أخرى، موضوع العلوم الطبيعية هو أشياء العالم بينما موضوع العلوم الثقافية هو الشخص الآخر أو الأشخاص الآخرون، أما الفارق في المنهج فقد أوجزه دلتاي في مقولتي: التفسير Explantation والفهم Under standing (عادل مصطفى، 2018،

ص ص 42-43) علما أنّ عمل دلتاي هو في الواقع تكملة لما قام به شلايرماخر حتى أنه كتب كتاباً بعنوان (حياة شلايرماخر). انطلاقاً من أن الفهم والتأويل جهات أساسية في وجود الإنسان، ودعى شلايرماخر إلى تحرير الفلسفة من التفسير الميتافيزيقي وأن تستعير العلوم الانسانية منهج الهرمونيطيقا.

لهذا عرف هذا الاتجاه بالمذهب التاريخي والذي نشأ في إطار العلوم التاريخية في ألمانيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي خاصة على يد دلتاي، ويدل اسم المذهب على تعلقه بدراسة التاريخ على نحو خاص، والاهتمام بالتطور العقلي والروحي، وهكذا يصبح التاريخ مركز النشاط الفلسفي ويرى أتباع هذه المدرسة التاريخية أنه لا يمكن إدراك جوهر التاريخ لا بمناهج العلوم الطبيعية ولا بأية طريقة عقلانية كانت. والتاريخ عندهم يحتوي على الفكر ويضمه بين جوانبه أثناء مسيرته (بوشنسكي 1992، ص 168)، فنقد العقل التاريخي بدلا من العقل الخالص وفهم الإنسان هي مشكلة استعادة ذلك الوعي بتاريخيته، يقول دلتاي: "ليس من خلال الاستبطان Introspection، بل من خلال التاريخ وحده يتأتى لنا أن نفهم أنفسنا". (عادل مصطفى، 2018، ص 68).

ويرى هايدغر أنّ الهرمونيطيقا تحليلٌ لظاهر الفهم الموجودة عند الانسان، وبحسب عبارته الهرمونيطيقا هي "دازاين" وقد تابع غادامير رسالة هايدغر، ورأى أن الهرمونيطيقا نوع من النظرية الوجودية للفهم بناءً على اعتباره وجود الفهم لغة من اللغات (صفدر، 2019، ص 20). فالدازاين (Dasein) أو الأنطولوجيا الأساسية عند هايدغر (1889-1976) تعني "الوجود-هنا" وإن كانت له دلالات متعددة ومع ذلك فهناك دلالة واحدة فأنا أكون دازاين ذلك يعني أنه في استطاعتي أن أكون أنا. وبالتالي فالعلوم الانسانية أو الروحية تهتم بالذات وسيُتخذ من الفهم والتأويل منهجا لها وهذا ما جعلها غير قادرة على تطبيق منهج العلوم، يقول دلتاي: "قدر العلوم الإنسانية أنها اقتصت بدراسة آثار كائن عنده مستأذنة وتتحدد نتائجها بيقني الحتمية مضروباً في «لا يقني» الحرية. إنه المخلوق الخالق، الذي يوجد خارج واقعه وخارج ماهيته. إنه الكائن الذي يُدخل «الوعي» في نسيج العالم" (عادل مصطفى، 1999، ص 65).

من هنا تمكن الفلاسفة من ابتكار منهج يليق بالعلوم الانسانية الروحية ويحافظ في المقابل على خصوصية موضوعها دون حاجة إلى استعارة منهج العلوم الطبيعية.

5. خاتمة:

في الأخير وبين هذا وذاك ما يمكن التأكيد عليه أنّ الموضوعات الفلسفية والعلوم الانسانية والاجتماعية تتطلب تعدد المناهج لذا كان لزاما ايجاد منهج يلتزم به الفلاسفة أثناء دراسة مختلف هذه الظواهر على غرار الحوادث التاريخية والظواهر الاجتماعية والسيكولوجية غيرها فالمشكل لا يكمن في الموضوع فقط بقدر ما يكمن أيضا في المنهج، وهنا تكمن ضرورة تغيير المفاهيم المتداولة التي تعمل على احداث نوع من التكامل بعيدا عن كل انفصال لأن هذا الأمر سيكون مفيدا للفكر البشري فالفلسفة والعلم ينبغي توحيدهما دون أن يكون لأحدهما سيطرة على الآخر لأنه سيكون ضارا لتقدم المعارف الانسانية، هذه الأخيرة التي برهنت لنفسها أنها قادرة على السير على منوال بقية العلوم وأن تحجز مكانها رغم رفض العديد من العلماء ذلك فهل تستطيع العلوم الانسانية أن تتزاج مع العلوم الطبيعية الصرفة أم أنها ستؤسس لنفسها منهاجا خاصا بها يعمل على ضمان التلاؤم مع طبيعة وخصوصية مواضيعها واشكالاتها؟.

6- قائمة المراجع:

- 1/- ابراهيم مصطفى ابراهيم، منطق الاستقراء في المنطق الحديث، القاهرة، دار المعارف، 1999.
- 2/- ابراهيم خليل أبراش، المنهج العلمي وتطبيقاته على مناهج العلوم الاجتماعية، دار الشروق للنشر والتوزيع 2009.
- 3/- إم. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، تر: عزت قرني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 1992.
- 4/- ايميل دوركايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، تر: محمود قاسم، مراجعة: محمد بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1950.

5/- إميل دوركايم، الانتحار، تر: حسن عودة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011

6/- عادل مصطفى، فهم الفهم -مدخل إلى الهيرومنوطيقا: نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير مؤسسة هنداي، 2018.

7/- محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مركز إعداد دراسات الوحدة العربية.

8/- ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، 1990.

9/- لوسيان غولدمان، العلوم الانسانية والفلسفة، تر: يوسف الأنطاكي، المجلس الأعلى للثقافة 1996.

10/- السيد شعبان حسن، برونشفيك وباشلار بين الفلسفة والعلم -دراسة نقدية مقارنة-، لبنان دار التنوير للطباعة والنشر، 1993.

11/- صفدر إلهي راد، الهيرومنوطيقا: منشأ المصطلح ومعناه واستعمالاته في الحضارات الانسانية المختلفة تعريب: حسنين الجمال، بيروت، لبنان، 2019.

12/- يمينى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة.

13/- يمينى طريف الخولي، مشكلة العلوم الانسانية -تقنيها وامكانية حلها- دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، 1990.

14/- كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي: دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، تر: عبد الحميد صبرة دار المعارف، القاهرة، 1959.

7. المقالات والمجلات:

1/- أحمد عبد الجبار فاضل، جدلية العلاقة بين المنهج العلمي، مجلة الآداب، عدد خاص بالمؤتمر.

2/- محمد بن سباع، علاقة العلوم الانسانية بالعلوم الطبيعية أو امكانية تطبيق المنهج التجريبي على الظاهرة الانسانية، مجلة الباحث في العلوم الانسانية، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2020/03/12.